القصص

من أقاصيص العرب

وضاح الشاعر

بقلم احمد حسن الزيات

— ١ —

في اليمن الخضراء ، وفي صنعاء ذات الظل والماء ، نشأ وضاح أزهر اللون ، أشهب الشعر ، مليح القسمات ، رقيق الاديم ، ثم ترعرع بين خمائل الاودية ومروج السهول وأزاهير الربى فازداد رواء وجهارة .

واذا كان الجمل يكتسب لون الصحراء . والسمك يستفيد مرونة الماء ، والطاووس يستعير أفواف الروض ؛ فان اليمانين لم تصلهم بطيعتهم ولا بيئتهم صلة ، فهم سمر الوجوه ضئال الجسوم قصار القدود ، وأرضهم مشرقة الاجواء مونقة المناظر خصبة التربة . لذلك رابهم وضاح بقدر ما راعهم ، فقالوا إنه من أبناء الفرس الطارئين على اليمن في عهد ابن ذي يزن ، ولكن الحكم سفه هذا الرأي وقضى بعربيته

لا يعنيك ولا يعنيني أن نكشف عن دخيلة هذا الشاب فنصف تاريخ أسرته وحقيقة ثروته وطبيعة عمله ، إنما يعنينا من وضاح ذلك الفتى الخطير الذي أشقاه شعره وأبأسه شعوره وقتله جماله .

نريد أن ننقل عن لوح القدر هذه الصفحة الدامية التي كتبت لهذا البائس وجرت عليه في غير رفق ولا هوادة .

* * *

كان وضاح الجميل الشاعر كالبلبل يعرف في نفسه جمال الريش وجمال الصوت ، فهو لا ينفك في حذر من الصائد ، وخوف من القفص ، فكان يغشى المواسم والأسواق وهو مقنع متنقب خيفة الحاسد وحذر المرأة ! !

ولكن المرأة كانت تعترضه بكل سبيل ، وتترقبه في كل مرصد ، وتتراءى له في كل مكان : تحت النخيل ، وفي الاسواق ، وعلى الماء ، وهو لا يزداد إلا تمنعا وترفعا ووحشة ، لانه محبوب ومن طباع المحبوب الادلال ؛ ولانه مطلوب ومن غرائز المطلوب الهرب ، ولم يجد مع ذلك فيمن رأى من النساء روحا جذابة ولا قوة غلابة ولا جمالا أبرع من جماله ، على أن وضاحا خلق للحب وكتبت عليه فيه الشهادة ! فعيناه على غير علمه ترتادان الحبيب ، وقلبه من قلقه وانتظاره يضطرب في حنايا صدره ، وعواطفه من اضطرامها وانبساطها تكاد تسيل ، وكان يفر من ضوضاء صنعاء ومتاجرها وقوافلها ، الى سكون الصحراء الرهيب ، وهدوء الطبيعة الموحش ، فيقضي سحابة نهاره جالسا في روضة ، أو مستلقيا على غدير ، أو نائما في مغارة ؛ كأنه نبي من أنبياء بني اسرائيل ينتظر الرسالة .

— ٢ —

في صباح يوم من أيام الربيع مشرق الاديم عنبري النسيم منضور الخمائل استهوته الطبيعة فأخذ يضرب في الارض حتى منتصف النهار ، واذا هو على ماء من امواه (الخصيب) من قرى اليمن ، وفي الخصيب شد الجمال اطنابه وشاد الحب معبده . والعرب يقولون لك : اذا بلغت ارض الخصيب فهو ل !

فجلس وضاح ينضح ظمأه ويرفه عن نفسه الى ان طاف به الكرى فنام .

تنبه وضاح ساعة الأسحار على صوت رخيم الحواشي ، متسق النبرات في رنين الفضة . فنظر فرأى حورية من حواري الحقول قد حسرت عن ساقها وغمست رجلا في الغدير ووضعت رجلا على الحافة وهي منحنية على الماء ، تجمع ثوبها بيد وتملأ سقاءها بيد . فرجف قلبه وبرق بصره وخيل اليه ان عينه لم تقع من قبل على فتاة ، فنهض ملأ من هذا المنظر الرائع عينيه الناعستين حركته . فرفعت بصرها اليه في سكون طرف وفتور لحظ . وكأنها حست بالتكوص لولا ان رأت منه ما رأى منها . فوقفت جامدة لا تحرك ، ولا تطرف ، بل أحست من نفسها الجفوان اليه حين تقابل النظران وتجاذب القلبان

وتمشى اليها مشية الحباب فى حياء ووناء ورقة . حياها فردت التحية ، واستنسبها فانتسبت كندية ، واستسماها فقالت (روضة)

ثم جرى بين المحبين حديث الشباب الحيى المضطرب الحائر .. ويكاد نصه يكون واحداً على اختلاف الألسنة والازمنة والامكنة فلا نثبته ، وكيف نثبت كلام الناظر للناظر ، وتدفق الخاطر فى الخاطر ، وعناق القلب للقلب ، وامتزاج النفس بالنفس ، ولحن اللسان للسان ؟ ؟

كانت روضة كما تشتهى كل فتاة ان تكون ، فهى كما صورها وضاح فى شعره ، كاعب وضيئة الطلعة لطيفة التكوين مصقولة الجبين يزينه شعر أثيث أشقر كذنب الكميت ، زجاه الحاجبين كانهما شقا بقلم ، تقوساً على مثل عين الظبية ، ساجية الطرف ، ذلفاء الانف ، عبلة الذراعين لاترى فيهما عظما يحس ولا عرقا يجس ، طفلة الكفين تعقد ان شئت منهما الانامل ، ممشوقة القد قد أفرغت فى قالب الحسن .

وجد كل منهما فى الآخر مشابه فى زهرة الوجه وصبية الشعر وهجنة النسب بالدم الفارسى . فتعارفا بلحظة ، وتفاهما بلفظة ، وتآلفا تآلف الاخدان كأنما كانا على موعد !

طوت شمس الطفل الغاربة مطارفها العسجدية عن السهول والحقول فلم يبق منها الا هلال على رءوس التلال وشعاف الجبال وأعراض النخيل ، وأخذ الرعاة يروحون بالقطعان الى الحظائر ، وآن للراعية الحسناء كذلك ان تؤوب ! فقامت روضة متثاقلة ، وودعته متخاذلة : وسارت وراء قطيعها تتهادى فى مرطها المفوف ونطاقها المحبوك وخمارها الاسود كأنها آلهة الرعاة أو تمثال الحسن .

تلاقيا مرة أخرى فى سرة الوادى المعشب وقد عملت فيه يد الطبيعة فازرته بعميم النبت ، وطرزته بألوان الزهر ، وضمخته بعبير الخزامى وريا البشام وأريج الرند . فجلسا ساعة تحت دوحة يتساقطان عذب الحديث ، ويتناشدان حلو الغزل ، ويتساقيان كؤوس الهوى ، ثم نهضا يسيران صاعدين تارة فى مدارج السيل ، وهابطين تارة الى قرارة السهل ، يجتنيان الكمأة ويقطفان البهار ويلتقطان الجزع المفصل . فلما انقضت الشمس على الافق الغربى تبرالاصيل تواعدا ثم تواعدا على اللقاء وتعاهدا على الوفاء بعد أن شق عليها رداءه وشقت عليه هى برفعها استدامة للحب وبقيا على الهوى !

— ٣ —

ظل العاشقان فى غفلة الزمان والانسان يتلاقيان كل يوم على خلاء ، حتى نم على هواهما شعر وضاح ، فنبه الغافل وتحرش العاذل وتحذر الأهل ، فحالوا بينها وبين لقائه وتوعدوه

فكان وضاح يأتى كل يوم على عادته فيجلس فى الاماكن التى أعتادها ، ويرتاد الغياض التى ارتادها ؛ ويستروح النعامى والخزامى فلا يجد قراراً فى مكان ، ولا جمالا فى طبيعة ، ولا روحا فى أرج ، فيدنو من الحصيب يترصد غفلة القوم ويتنسم ريح روضة ويقول :

يهددونى كيما أخافهم هيهات أنى يهدد الاسد ؟

حتى اتى ذات مساء عبدها الذى كان يرعى عليها رائحا بالقطيع الى مراحه ، فحمله رسالة اليها يطلب فيها أن توافيه على الكثيب متى غفت العين وهدأت القدم ، فوافته فى احدى أترابها ، فجلسا على الحصباء يتناجيان حرقة الجوى وتحكم الهوى وتعقب الرقيب ، وأخذت روضة تحكى لوضاح كيف استفاض الخبر وخاض فيه الناس ، وكيف حجبها أخوتها وراقبوها بعين لاتغفل ، وذكرت له والدمع يتقاطر من عينيها أنهم صمموا على رفض خطبته ومنع تزويجه ، وقرروا تزويجها من موسر كثيف الظل جافى الخلقة ، وحذرته أن يدنو من الحى فان قومها يأتمرون به .

غلى جوف وضاح وعصفت فى رأسه الحمية ، ونزت بقلبه الصبابة ، وعقد نيته على معالجة الامر بالحزم ، ومواجهة الخطر بالصراحة ، وقرر زيارتها فى دارها بعد هذا الحوار البديع الذى خلده وضاح فى هذه القصيدة :

قالت : الا لا تلجن دارنا	إن أبانا رجل غائر
قلت . فانى طالب غرة	منه وسيفى صارم باتر
قالت : فان القصر من دوننا	قلت : فانى فوقه ظاهر
قالت : فان البحر من دوننا	قلت : فانى سابح ماهر
قالت : فحولى اخوة سبعة	قلت فانى غالب قاهر
قالت فليث رابض دوننا	قلت فانى أسد عاقر
قالت : فان الله من فوقنا	قلت فربى راحم غافر
قالت : لقد أعيتنا حجة	فأت اذا ماهجع السامر
واسقط علينا كسقوط الندى	ليلة لاناه ولا زاجر

وفى الليلة التالية كان وضاح فى طريقه الى الحصيب ، وكان أخوة روضة وعمومتها يرصدون سبيله ويطلبون لقاءه ، بعد أن علموا من الرقيب اجتماع الكثيب ، وكانت الحبيبة على علم بخروج القوم وقدوم المحب المخاطر فطرقت مضجعها الهموم ، وتخالجت قلبها الوساوس ، وأخذها عليه المقيم المعقد .

لم يطل انتظار الجماعة للفرد فتلاقوا وراء الوادى ؛ ثم كانت عتاب على الاشعار الجارحة ، وسباب على الشهرة الفاضحة ؛ وقتال انتهى بطعنة تلقاها المحب فى موضع حبه . ثم خلا المكان الا من جريح

يئن ، وفرس يحمحم ؛ وتحامل على نفسه وضاح فضمد جرحه وركب جواده وقفل راجعا الى أهله .

قضى المسكين شهرين على فراش الالم يتضور من ضربان الجرح وهذيان الحمى وثوران الحب . ولكن الجرح كان قريب الغور فاندمل ، والحمى كانت عارضة فأقلعت ، والحب ؟ هذا هو المرض المخامر والداء العياء ، فليس له غير الله من آس ولا طبيب ، لذلك نصحوا لوضاح أن يحج البيت فشد اليه رواحله . وسنلقاه هناك بعد قليل .

— ٤ —

اذن مؤذن الحج للمرة الثمانين بعد الهجرة ، فسالت بفجاج الجزيرة بالقباب والهوادج ، وشرقت دروب الحجاز ومسالكه بالناس رجالا وعلى كل ضامر ، واكتظت بطاح مكة ورباعها بالحجيج من الشام والعراق واليمن ، ودوى الفضاء المشرق باصوات التهليل والتلبية ، وروى الثرى المكروب من دماء البدن والضحايا ، وتعطر الجو الفائظ بانفاس الحسان الغيد ، وفاضت اندية مكة النبيلة بالقصف والعزف والغزل ، وخرج الشعراء من بني الانصار والمهاجرين في مطارف الخز وبرود الوشي على النجائب المخضوبة ، يتعرضون للغواني المحرمات ، ويقطفون من فوق شفاهها اللعس الفاظ الدعاء ، قبل أن ترفع الى السماء ، وهناك على الربوة العالية ضرب الفسطاط الرفيع العماد ، وفرشت الطنافس ، ونصبت الاراثك ، وصفت النمارق ، ونضدت الوسائد ، وقامت الجواري والولائد ، وعلقت السدول والستائر ، وبرزت من خلالها زوج الخليفة في زينتها وفتنتها ترسل النظر تارة الى الأفق البعيد ، وتارة تتصفح به الوجوه المختلفة والازياء المتعددة ، والناس يتحامون جانبها ويتهيبون ظلالها لهيبة الملك وشراسة الجند وجلال الخلافة . حتى الشعراء من شباب الهاشميين وخلفاء ابن ابي ربيعة لم يجرؤا أن يمدوا الى جمالها الفاتن عينا ولا لسانا ، لأن الخليفة كتب (يتوعد الشعراء جميعا أن ذكرها احد منهم أو ذكر أحدا ممن تبعها) ولكن الملكة تريد على رغم الملك أن تكون من عرائس الشعر ، وأن تظهر في ديوان الشاعر ، كما ظهرت في ديوان الملك . والشعر في الحجاز كان حينئذ للمرأة ، يصف حالها ويعرض جمالها فتصل من طريقه اما الى الزواج واما الى الشهرة . فتراءت الملكة للناس وسهلت للغزلين الحجاب .

وكان وضاح يومئذ مشغولا عن الشعر والشعراء بنفسه ، فهو يطوف بالبيت ويتعلق بستور الكعبة ، ويسأل الله ان يشعب قلبه بالسلوة . حتى اذا خرج الحجيج الى عرفات وتطاولت الرقاب ، وتطلعت العيون ، واومأت الاصابع الى موكب الملكة الحاشد ، جذبه جلال الحاجة النبيلة وجمال وصائفها قدنا من فلكها ، فوجد كهنة الحب وشياطين الشعر يسايرون ركابها ويراقبون سناها . فمشى بجانب الشاعر كثير ، ووقعت عين الملكة عليه فراعها جماله ، وعلقتها حباله . فاشارت بطرف العين الى جاريتها غاضرة فأنبئت معرفته .

فلما افاض الناس من عرفات ، وانحدروا الى مرمى الجمرات ، وقفت بجانبه فتاة فتانة ناهد ، واسرت اليه وهو يرجم الشيطان ان الملكة تريد لقاءه في مخيمها على (منى)

اضطرب وضاح لهذه الارادة وخشي عاقبة هذه الدعوة ، وتردد طويلا في الذهاب الى هذا الموعد ، لان هذا الحب الملكي اكبر من عواطفه ، ولان قلبه الجريح لايزال يقطر في لفائفه ، ولان خيال (روضة) يعتاده في جميع مواقفه ، ولكنه عربي !! والعربي طماع طماح مخاطر . فلما ذا لايبذ الشعراء ويكبت الاعداء بالسبق الى جمال الملكة ومال الخليفة ؟ ؟

امسى المساء ، وكان هلال ذي الحجة قد توارى بضوئه الشاحب خلف الجبل ، واخذت الاضواء المنبعثة من بواقي المشاعل والمصابيح والكوانين تكافح ظلمة الغسق ، والقى الناس ارواقهم على الرمال مجهدين بعد نهار قائظ احمرت حواشيه من دماء القرابين ، وضرب الكرى على آذان العامة فلم يبق يقظان الا ذوو الحس الرقيق ممن جرهم جمال الليل الى جمال السمر ، والانفس شاعرة ان بسط الحب عليها جناحه ، وازال مابينها من فروق ، ورفع مايفصلها من حواجز ، حتى التقى ابن آدم بنت حواء وجها لوجه ، واقبلت الملكة على وضاح اليمن تناقله الحديث ، وتساجله الشعر ، وتنصب له شرك الفتنة في مطاوي اللفظ ، وتسدد الى قلبه سهم الغواية في مرامي اللحظ ، وحسبنا أن نروي من هذا الحديث المشفق العذب هذا الحوار :

— وكيف حال روضة بعدك يا وضاح ؟

— على شر حال وا اسفاه ! زوجوها من موسر مجذوم فاعداها بالجذام !!

— وما حالك انت من بعدها ؟

— اما قبل هذه الليلة فكنت لا انتفع بنفسي ولا اشعر بوجودي

— ومنذ الليلة ؟

— منذ الليلة عرفت نعيم السماء بعد ماعرفت في الخصيب نعيم الارض

— اذن ستحبني ؟ ؟

— نعم ولو خيرت ما اخترت

— وستنسب بى فى شعرك ؟

— نعم ولو كره الخليفة

— اذن اصحبنى الى دمشق فامدح الخليفة . وسأرفدك لديه واقوى أمرك عنده

— ٥ —

وعلى نهر بردى وفى القصر المشيد زكت شجرة الحب حتى عرشت على كل حائط ؛ وسطعت فوحتها فى كل انف ، وتهدلت أغصانها المزهرة على سرير الخليفة ، ودنت قطوفها الجرمة من فم المجنون وليلاه ؛ فا كلت منها حواء وجرت الى الخطيئة آدم ! وآدم دائما هو الذى يكفر عن الخطيئة ! !

ظل وضاح ابن الطبيعة الطليقة سجينا فى الخليفة قصر لا يبصر سماء ولا أرضا ، ولا يرى غديرا ولا روضا ، ولا يسمع حركة ولا صوتا . ولا يشعر بمجرى الحياة الا حينما تخرجه الملكة من مخبئة ساعة يغفل الرقيب وتغفو العين المريبة . فتطارحه احاديث الغزل . وتسقيه من سلاف الهوى علـلا بعـد نهل . ثم ترده عند الخوف الى مأمنه .

ومضت على تلك الحال حقبة من الدهر ورفت عليهما ظلال الأمن فيها . ولكن وجه الجريمة وقاح لابد من سفوره . وريحها ذفر مهما كتمته فلا مناص من ظهوره . والخطيئة لا يطهرها الا عقوبة أوضحية !

فأهدى إلى الخليفة ذات يوم جوهر نفيس فراقه حسنه . وأحب أن يطرف به الملكة . فبعث به اليها مع خادم له ومعه كلمة رقيقة . فمضى الغلام بالتحفة الى مجلس الملكة فلم يجدها ، وعلم انها فى بعض الغرف فدخلها عليها مفاجأة ، وكانت قد احست بخطاه دون الباب فبادرت الى اخفاء وضاح فأدخلته فى صندوق وأغلقته . وحينئذ دخل الغلام فرأى أواخر جسمه تغيب تحت الغطاء . فأدى الى الملكة الرسالة ودفع اليها الجوهر ، ثم قال لها بلهجة الخبيث الماكر :

— الا تهبين لعبدك يامولاتى حجرا من هذا الجوهر ؟ فأجابته الملكة بلهجة العزيز المتعض : (كلا يابن اللخناء ولا كرامة)

ولعلها لو كانت تحسن قراءة الوجوه لحشت فمه بهذا الجوهر حتى لا ينطق . أو لعلها فهمت لحن قوله ، ولكن نفسها الملكية الابية انفت الخشوع ولهذا العبد فآثرت نقمة زوجها على نعمة خادمه وهى مع ذلك قوية الثقة فى شفاعة الجمال ووساطة الحب ! ومهما تكن الدوافع الى هذا الجواب فأن الخادم قد ارتد الى سيده بجلية الأمر . ولكن الأمر نزل من خليفة معاوية فى بال واسع . فأمر بالغلام فوجئت عنقه . ثم لبس نعليه ودخل على زوجه وهى جالسة تمتشط فى تلك الغرفة . فجلس على الصندوق وقد علم وصفه من الغلام ، ثم قال بلهجته الهادئة الرزينة :

— ما أحب اليك هـذا البيت من بين بيوتك . فلم تختارينه ؟

— اختاره واجلس فيـه لأنه يجمع حوائجى كلها فأتناولها منه كما أريد من قرب

ألا تهبين لى صندوقا من هذه الصناديق ؟

— كلها لك يا أمير المؤمنين !

— ما أريدها كلها . وإنما اريد واحداً منها

— خذ أيها شئت

— أريد هذا الذى جلست عليه

— خذ غيره فأن لى فيه أشياء احتاج اليها

— ما أريد غيره !

— اذن خذ ياأمير المؤمنين

فاشار الى الخدم فحملوه الى مجلسه . ثم أمر العبيد فحفروا تحت بساطه بئرا يلقوا بها الماء . ثم دعا بالصندوق أو الناووس وقال له :

(انه بلغنا شىء . ان كان حقا فقد كفناك ودفناك ودفنا ذكرك وقطعنا أثرك الى آخر الدهر . وان كان باطلا فقد دفنا الخشب ، وما أهون ذلك ! !)

ثم قذف به فى البئر ! وهيل التراب ، وسويت الأرض ، ورد البساط ، وأخـذ الخليفة مجلسه . واستمر الفلك يدور دورانه الابدى المنتظم

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا

أنيس ولم يسمر بمكة سامر ! !

الزيات

شفاء البول السكرى

بنباتات مصرية يأكلها كل الناس

وقفت باذن الله تعالى فقط لاهم المؤلفات العربية القديمة بايجاد دواء يشفى البول السكرى شفاء تاما والمعتمدون على بذور النباتات المصرية وهى لا يحرم منها أحد يرسل لحضرة صاحب العلبة عشرة قروش صاغ — ارسل بالبريد شيكا بالثمن يصلك الدواء وبه كيفية الاستعمال

بمحل عطارة محمد طاهر الصاوى

بوكالة ابو زيد رقمه ١٥ بالحمزاوى بمصر